اللّيلُ في الشِعرِ الجاهِليّ

جليل رشيد فالح

منهج البحث :

يزخر ديوان الشعر العربي في الحقبة الجاهلية بألوان شتى من اللوحات الوصفية عن الطبيعة بكل عناصرها ومكوناتها ، لذلك لم يكن ظاهرة غريبة أن يتمثل الشعر الطبيعة بحركتها وسكونها ، وبأحداثها المرئية المشهودة ، وماً توحي به من أمور متخيلة غير مرئية .. فانعقدت دراسات عن الطبيعة في الشعر الجاهلي تكشف عن عمق اثرها في حياة الانسان العربي ، وانعكاس مظاهرها في الشعر انعكاساً قائماً على التفاعل الصميم بين الطبيعة والشاعر .

ورأيت أن هذه الدراسات لم تول ظاهرة الليل — وهي ابرز ظواهر الطبيعة — اهتماماً يذكر ، سوى شذرات لاتتجاوز حد الاشارة والتلميح .

واذا كان بين الشاعر والطبيعة من حوله هذا التفاعل الحيوي الفعال فان الليل الزمن يغطي من مساحة حياته شطر المناصفة .

فكان هذا البحث — لذلك — خطوة متأنية كان باعثها الرغبة في دراسة هذه الظاهر ة دراسة انبثقت خطوطها من طبيعة الحديث الخاص للشاعر عن الليل .

ومن خلال النصوص الشعرية تبين أن الليل صور مختلفة شتى ، يجمع بينها رباط نفسي ، وتؤلف بين أجزائها مشاعر ذاتية تستوحى ابعادها من الليل الزمن ، فيتحول من خلال هذا التفاعل الى ليل نفسي تنسفح على صفحاته دفقات تلك المشاعر الذاتية والخلجات الوجدانية ..

ومن خلال هذا الملحظ الفني ينبثق خطان واضحان متميزان احتويا تلك المشاعر وتوزعا تلك الخلجات . فكان حصيلة ذلك ان تحدد هذا الخطان

في ليل الرهبة وليل الالفة .

وازاء هذين الخطين يبدو لنا . من خلال النصوص المتفرقة — ان هناك خطاً آخر . هو خط الليل الزمن — ، الا ان ملامحه لاتحمل من القوة ما نلحظه في ذينك الخطين الواضحين المتسمين بالقوة والفاعلية . وكان من مقتضيات الوفاء بمتطلبات الدراسة أن عقدنا له حديثاً وجيزاً من خلال أمثلته وشواهده دون الحاجة الى التفصيل والاسهاب ، لضيق دلالته التي تكون بمعزل عن الحدث الرئيس في النص ، فهو لايعدو ان يكون غير وعاء للحدث فحسب .

وكان ثمة لزام أن نوضح مدلول الرهبة والألفة وابعادهما النفسية العامة ليتسق لنا المنهج في توزيع عناصرهما توزيعاً ينأى بعض الشيء عن التعسف والتكلف .

ثم إن الليل في امثلة الرهبة والالفة يشكل الجزء الفعال في مجمل لوحة الحدث ، بحيث انه لو انسل عنصر الليل من اللوحة لما كان لها تلك الحيوية الفاعلة ، والخاصية المتميزة في تجسيده معنى الرهبة او الألفة .

ومن أجل ذلك كانت هناك — في الجزء الأخير من البحث — دراسة فنية تكشف عن الدلالات المنسجمةمع عنصر الليل من الفاظ وتراكيب وموسيقى وصور ، تتضح من خلال هذه العناصر الفنية أهمية وجود الليل الذي يعطي الحدث — كما أشرنا — مدلوله الحيوي رهبة كان او ألفة .

مدلول الرهبة والألفة :

خشية ان تذهب الظنون الى حصر معنى الرهبة — بصورة خاصة — في الفزع والخوف بمعياره العام المتعارف عليه ، نود ان نشير الى ان الرهبة التي جعلناها ملمحاً من ملامح الليل من خلال شعر هذه الحقبة انما نريد بها كل ما يستشفه الشاعر ويستشعره من امور يجدها من الأهمية القصوى بحيث تشغل باله وتستحوذ على حواسه ، وقد يكون

هذا الجو النفسي الذي يرسمه الشاعر باعثاً على الخوف او الفزع الى حد معين ، وقد يكون عنصر الخوف او الفزع ضرورياً وايجابياً في منح الفكرة حركة وفعالية .

فالرهبة إذن تعني ان الموضوع بدرجة بالغة الأهمية تستوفز إزاءه احاسيس الشاعر لمواجهة موقف عسير بحيث تعتريه حالة من القلق والاضطراب الوجداني وعندئذ يكون لمجابهته أو تصديه معنى خاص يضفى على الحدث فعالية تلفت الأنظار وتدعو الى شيء من الإعجاب ولو في حدود اعجاب الشاعر بنفسه .

أما الألفة فأنها تعني كل الأحداث التي تتحرك في دائرة من الأجواء النفسية الهادئة الساكنة ، التي تنساب من خلالها المشاعر والاحاسيس ازاء الليل الزمن في رقة ودعة وشفافية يحس الشاعر ازاءها ان ليله هذا أنيس ودود وسمير حبيب الى النفس ، فيسرى بذلك — من خلال لوحة اليل — ارتياح نفسي الى اعماقه .. وكأن الليل هنا مرآة يشهد عليها خلجات نفسه الوادعة الأنيسة .

الشاعر والطبيعة :—

يشكل الليل جزءاً مهماً من أجزاء الطبيعة ، ولما كان الشاعر يتفاعل مع الطبيعة بكل أبعادها فإن من الضرورة التحدث عن علاقة الشاعر بالطبيعة عامة ، وتبيان موقفه منها وقدرته على توظيف عناصرها ومكوناتها في عمله الفني ، وصولاً إلى تمثل أبعاد اللوحة المتمثلة في الليل ، ليبدو لنا — بالتالي — أن منهج تعامله مع الليل إن هو الا صورة من صور تعامله مع الطبيعة التي يضطرب ضمن اطارها العام ؛ إذ أن ارتباط الانسان الجاهلي بالطبيعة إنما هو ارتباط عضوي لا انفصام بينهما ، ذلك أنه حين يفتح عينيه على ماحوله يرى نفسه وهو في صميم الطبيعة المترامية الفسيحة جزءاً منها لايتجزأ .

والطبيعة هي التي تحدد مساره وانطلاقته ، بل هي التي ترسم له مناهج الحركة ضمن الأطر النفسية والسلوكية والاجتماعية المنبثقة من طبيعة هذا الوجود المحدد بسمات خاصة ، والتي تحلو مظاهرها في عينيه تارة ،وتبدو — تارة أُخرى — كالحة كئيبة ، وثالثة تظهر قاسية جافية .

والشاعر هو اللسان المعبر عن معاناة الانسان الذي يضطرب ضمن اطار الطبيعة المحدودة رغم امتدادها المترامي وتعدد عناصرها ،ومن هنا كان تعامله مع الطبيعة قائماً على التأثر والخوض في اعماق المشاهدات الحسية ليستجلى مما وراء الأشياء صورة عالمه النفسي ، عالم المشاعر والأمنيات ، عالم البحث عن الأمثل الأفضل.

ولذلك كان من التجني على شعر الطبيعة أن يرى محمد زكي العشماوي « أن شعر الطبيعة في الأدب العربي لم يكن في معظمه أكثر من تسجيلات لأدراكات حسية تظهر فيها مهارة الشاعر في الوصف ،والتشبيه اعطاء صور متشابهة للشيء الذي يراه دون أن يتعمق إلى التعبير عن حالات روحية ، أو دون أن يشعرنا باندماج الشاعر مع الطبيعة وغنائه لها » (١)

ذلك أن الطبيعة جزء من وجود الشاعر ، فهو يرى نفسه من خلال حركة العناصر في هذه الطبيعة ،وان كان في بعض أجزائها صامتة لاتتكلم ،رابضة لاتريم.

وكان حديث الشاعر الجاهلي عن الطبيعة متصلاً بدقائق الأشياء ،فقد استوعب في شعره كل ماحوته الطبيعة من عناصر تدل على انسجام وألفة وارتباط ، كما تدل على وعي فني متكامل .

« وقد وهب الشاعر حساً دقيقاً بوحدات الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات وأصوات اصدائها التي تتجاوب فيها إذا جنّ الليل ، وذهبوا مع مع الأوهام في تصور مصادرها . فاعتقدوا انها من الجن تارة وانها من غير الجن تارة أُخرى » (٢)

---

(١) الأدب وقيم الحياة المعاصرة ص ٤٠٧

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ٢٣٦

وحين يكون اهتمام الشاعر بالطبيعة من حوله على هذا النحو الذي أسلفنا ،فليس من الغرابة ان نتلمس عنده لعناصر الطبيعة ومجاليها لوحات تحتاج إلى استجلاء وبحث ، ذلك أن الوقفات الجزئية عند بعض هذه المظاهر تحملنا على تأمل أطول وأدق ،حتى نصل انفسنا مع الشاعر في تملي معالم الجمال من خلال الرؤية الخاصة للشاعر.

« على أن العربي لماح يكتفي بنظرة إلى الشيء ، ولا يريد أن يطيلها ويتعرف تفاصيله، والشاعر بنوع خاص لايهمه الموصوف كله ، وانما يهمه منه شيات معينة ومعالم خاصة فهو يتحدث عنها ويدع غيرها ، ولقد يعود إلى فكرة سابقة ليزيدها وضوحاً او ليزيد نفسه رضا بتصويره الذي صوره(١)

الا ان هذه الشيات والمعالم تمثل لنا نقاط التلاحم الضارب بجذوره في أعماق نفسه ، بل هي التي تشخص ذروة التفاعل الوجداني الذي يعمق احساسنا بكل ما في اللوحة من معان وهواجس ومشاعر ، فهو حين يقف عند معلم من معالم الطبيعة وقفة خاصة يسكب عنده دفقة من احاسيسه المكثفة ، فانما يحقق بذلك وجوده الحقيقي ، اذ أن تناثر هذه الاحاسيس ضرب من القلق الذي يمزقه ، والحيرة التي تضيع عليه الرؤية العميقة ، ولكن كثافة اللوحة الطبيعية تعني الوعي المتفاعل بين الطبيعة التي يرتبط بها ارتباطاً مصيرياً وبين ما يعتمل في اعماقه .

من هنا كان لنا وقفة — من خلال هذا البحث — مع لوحة من لوحات الطبيعة تعامل معها الشاعر تعاملاً خاصاً متسماً بالحيوية والحركة سواء من خلال الفعل الشعوري او الفعل الفني — تلك هي لوحة الليل — كما اسلفنا، حيث حقق الشاعر الجاهلي فيها قدراً وافياً من الموازنة بين الحركة الشعورية والصورة الفنية .

وتتنوع ملامح الليل في الشعر الجاهلي وتتباين صوره وتختلف دلالته ، ومرد ذلك الى تنوع المشاعر والمواقف لدى الشاعر نفسه ، حتى ان خلجاته

(١) اغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٦٧

الداخلية وما ينتابه من احاسيس انما تضفي على الليل تلك السمة المتساوقة مع تلك الخلجات والإحاسيس «فان العلاقة بين صوره من جهة ومشاعره من جهة اخرى ليست علاقة تضايف وإلحاق ، بل هي علاقة صميمية تعكس توحد الانسان بالطبيعة كما تعكس تمثل هذه الطبيعة للانسان » (١) .

ليل الرهبة :

ان التصاق الانسان بحياة الصحراء الفسيحة المنبسطة جعله يتوجس خيفة مما تضمره في طواياها ، ولذلك فانه لايحس بأن بينه وبينها صلة من ود او وشيجة من ألفة ، كما يحس انها لم توفر له شيئاً من الطمأنينة النفسية ، وهو يعايشها معايشة حياة او مصير ، سواء اكانت هذه المعايشة على هامش الحياة أم في صميمها ، لذلك فقد تصور العربي عالمه الذي يمتد امام عينيه امتداداً لانهاية له ، يخفي في طياته اسراراً لم تكشف ، ويحس أن وراء هذه المجاهيل كائنات هي اقوى منه ، تتحكم في حياته وتمسك على زمام مصيره ، فتصور الصحراء عالماً مشحوناً بالجن ، كما تصور طبيعة الحياة التي يحياها الجن ، وتوهم أن لابد من أن يتقي شرور هذا العالم المجهول ، فكانت الآلهة التي تعبد وسيلته في اتقاء الشرور ودفع المكاره .

« ولم يكن انسان الصحراء ليشعر يوماً انه وحيد ، وأن ليس من احد سواه في هذه القفار المترامية ، فاذا خلت من بشر لم تخل من حيوان مستأنس او متوحش ، واذا خلت منهما لم تخل من ارواح تمضي وتجيء ، وهو لايراها لكنه يحس بها ، أما هي فتراه وتحس به في طوافه وتجواله ، يحمل في حقيبته الهه الصغير وفي صدره طقوس الهه الكبير وتنظر اليه عيون الآلهة من وراء قبة الليل المدلهم » (٢)

ان تصور عالم الصحراء على هذه الصورة عمق من احاسيسهم بترقب الشر ، فالمثقب العبدي يحس ان الشر يبتغيه اني رحل فيقول (٣) :

(١) مقدمة للشعر الجاهلي ص ٤٥ مجلة المعرفة السورية ، العدد ١٥١ ايلول ١٩٧٤

(٢) الاسطورة والرمز في الأدب الجاهلي صـ ٩٧ من مجموعة بحوث بعنوان (الشعر والمجتمع)

(٣) ديوان شعر المثقب العبدي ٢١٢ — ٢١٣

وما أدري اذا يممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا ابتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

يقول المسعودي في تعليل لهذا الوهم الذي قد ألم بالعرب في جاهليتهم «وقد تنازع الناس في الهواتف والجان ، فذكر فريق ان ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك انما يعترض لها من قبل التوحد في القفار ، والتفرد في الأودية ، والسلوك في المهامه المغولة والمروريات الموحشة ، واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة و الأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ومثلت له الاشخاص وأوهمته المحال ، بنحو ما يعرض لذي الوسلوس .... لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراة مستشعر للمخاوف متوهم للمتالف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانفراسها في نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف واعتراض الجان له »(١)

ومما تركته الصحراء الموحشة في نفوس العرب أن كثيراً من الأمور المتوهمة سيطر على عقولهم ونفوسهم ، فكان من آثار ذلك الزجر والعيافة ، فالزجر هو زجر الطيور والوحش وإثارتها تفاؤلاً او تشاؤماً . والعيافة هي التكهن بالطير وغيرها ، وكذلك التطير مما يكرهون ، اذ يداخلهم خوف من وقوع مكروه ، وكانت لهم عادات وممارسات تتصل بما يجول في دخائل النفوس من خوف ورعب مما يتمخض عنه المجهول ، ومن ذلك عقر الابل على القبور ، والهامة والصدى وتمائم للوقاية من الحسد والجن (٢) .

واذا كانت الحياة العربية محفوفة بالمجهول حافلة بكل ما يبعث في جنبات النفس من هواجس ومخاوف فاننا نعتقد ان الليل يضيف ملمحاً آخر يعمق من احساس العربي بالخوف ويجعله على جانب كبير من الحذر والحيطة .

---

(١) مروج الذهب وسادن الجوهر ج٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٦

(٢) ينظر (الحياة العربية من الشعر الجاهلي) للوقوف على تفاصيل العقائد والعادات التي تتصل بهذا الجانب — الباب الرابع ٣٧٠— ٤٣١ ، والباب الخامس ٤٣٤ — ٥١٠

ومن خلال حديث الشاعر عن الليل نجد عنصر الرهبة متجسداً خلال لوحاته ، وحتى في حديثه عن التحدى يشعرنا أن الليل رهيب لايقتحم . وأن وراء سجف الظلام أهوالا ضخاماً . وهو مع كل ذلك يقدم دون أن يبالي بما يضمره له الليل البهيم وراء استاره السود، فقيمة التحدى تتحدد بعظم استثارة الرهبة من أجواء الليل ، فهاهو المرقش الأكبر يجتاز الدوية الغبراء على ماحفها من امور تحول دون المضي.

يقول : (١)

ودوية غبراء قد طال عهدها تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها منكراتها بعيهمة تنسل والليل دامس
تركت بها ليلاً طويلاً ومنزلاً وموقد لنار لم ترمه القوابس
وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدو النواقس
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست من الليل قد دبت عليه الروامس

انه يشير بذلك إلى أن الصحراء مهلكة ،ومع هذا فانه صمم على أن يسلكها متخطياً عسر المسالك فيها . ثم يجعل الليل الدامس وعاء لهذه الحركة التي يحف بها الهلاك إشعاراً بأن الامر اشد عسراً وأن الهلاك اقرب إلى السالك . ويكون أعشى قيس أكثر امعاناً في تجسيد الرهبة من خلال رحلة أخرى متحدية حين يقول (٢)

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل
لايتنمى لها بالقيظ يركبها الاالذين لهم فيما أتوا مهل
قطعتها بطليح حرة سرح في مرفقيها إذا استعرضتها فتل
يل هل ترى عارضاً قد بت ارمقه كأنما البرق في حافاته الشعل

فهو يعرض لذكر الجن من خلال الليل فيزيده ذلك رهبة وفزعاً اكثر

---

(١) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٢٩٠
(٢) المصدر نفسه ٣٦٨

مما لو جعل الليل المظلم وحده وعاء لحركته واضطرابه وتكون لوحة اعشى قيس بهذه الاضافة الفنية أكثر عمقاً من لوحة المرقش الأكبر.

ويقترن التحدى بالليل في أكثر من لوحة عند شعراء الجاهلية حتى أصبح ذلك ظاهرة . ولا تعليل لها غير أن الليل عند الجاهلي يوحي بالرهبة . وهو بذلك يعطي لتحديه بعداً بطولياً يسترضي بايراده الآخرين . وكأن المتحدي يعدم مايلتمسه من صور النهار ، لأن وضح النهار عند العربي رمز الصفاء والسكينة والبسمة والأمل. وهو آمن في نهاره قدر ما يخالجه الخوف والرهبة من هذا الليل الدامس الذي يتساوى فيها الأعمى والبصير . كما أشار إلى ذلك اعشى قيس في قوله (١١).

وليل يقول القوم من ظلماته سواء بصيرات العيون وعورها
كأن لنا منه بيوتا حصينة مسوحاً اعاليها وساجاً كسورها
تجاوزته حتى مضى مدلهمه ولاح من الشمس المضيئة نورها

وادلهام الليل بسواده الكثيف يوحي إلى الاعشى ان جدراناً عالية تطاول السماء قد قامت من حول مسكنه فجعلتها حصوناً حصينة وقلاعاً شامخة .

ثم إن الليل الرهيب على الصورة التي تأملها لم يحل بينه وبين المضي . وينتهي مدلول البطولة او أن الشاعر ينهي مدلول البطولة وحدودها عند اضاءة نور الشمس وكأنه يقول :

ليس للتحدي وقع في النفوس إذا اقترن بوضح النهار.

ودريد بن الصمة يعرض المعنى نفسه في صورة مماثلة مما يألفه القاريء عند الشعراء الآخرين وهو يختار الليل عنصراً من عناصر رحلته الشاقة العسيرة ليكون له احسن الوقع في النفوس فيقول : (١٢)

وما قصرت يدي عن عظم أمر اهم به ولا سهمي بنكس
وما أنا بالمزجى حين يسمو عظيم في الامور ولا بوهس

---

(١١) المصدر نفسه ٣٩٠
(١٢) المصدر نفسه ٧٦٧

وقد أجتاز عرض الحزن ليلاً بأعبس من جمال الغيد حلس
كأن على تنائفه إذا ما اضاءت شمسه اثواب ورس

الا أن دريداً حين يقرن مضيه بالليل دون غيره من الأوقات فهو في موقف دفاع عن النفس وكأنه مرمي بالتقصير والتهاون فأراد أن يثبت أنه غير ذلك ولذلك وجد انه ينبغي أن تكون لهجته متسمة بشيء من العنف وأن يجعل تحديه مقترناً بما يعيه الذهن العربي من عناصر الرهبة المعروفة والليل يحقق للشاعر مايسعى إلى تصويره وتجسيده .

وتتجلى براعة عنترة في توظيف صورة الليل لتصوير معركة نهارية احتدمت حتى ثار فيها الرهج كثيفاً مدلهماً استحالت معه الهاجرة إلى ظلمة جوالة شاملة أرجاء المعركة.

يقول عنترة (١٣)

ودرنا كما دارت على قطبها الرحى ودارت على هام الرجال الصفائح
بهاجرة حتى تغيب نورها وأقبل ليل يقبض الطرف سائح

وفي موضع آخر يقرن عنترة الليل بالأقدام والمضي : فيقول (١٤)

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلاً وقد مال الكرى بطلاها
وسريت في وعث الظلام اقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها

إنه يجعل نهاية الليل وبدء انبلاج الصباح آخر ما يقترن الحديث بالزمن. فهو وغيره من الشعراء لايتجاوزون هذا الاطار الزمني وكأن الليل هو ساحة البطولات الفذة التي تجلب الاعجاب والتقدير.

وتتكرر الصورة عند عنترة أكثر من غيره ، يقول (١٥)

وكيف أخشى من الأيام نائبة والدهر اهون ماعندي نوائبه
كم ليلة سرت في البيداء منفرداً والليل للغرب قد مالت كواكبه

---

(١٣) ديوان عنترة . تحقيق محمد سعيد مولوى ٣٠١
(١٤) المصدر نفسه ٣٠٥ — ٣٠٦
(١٥) شعراء النصرانية قبل الاسلام . — ٨١٨ ديوان عنترة دار صادر ٩١ .

ان السير في البيداء منفرداً أمر لايخلو من خطورة ، وقد يقوم بهذه الرحلة كل من ارتبط مصيره بمثل هذه البيئة . ولكن السير في الليل منفرداً لايتأتى إلا ممن اوتي نصيباً وافراً من الشجاعة والاقدام .

ويقول ايضاً : (١٦)

اطوى فيافي الفلا والليل معتكر واقطع البيد والرمضاء تستعر
ولا ارى مؤنساً غير الحسام وإن قل الأعادى غداة الروع اوكثروا

ولا يغير من نظرتنا الى استخدام الليل عنصراً من عناصر التحدي ان يستعير عنترة من النهار صورة الى جوار صورة الليل هي الاخرى تعبر عن التحدي. فالفرق هنا ان الليل مستخدم بصورته الماثلة للعيان ظرفاً زمانياً له سماته المحددة . اما النهار فلم يستخدم هنا بوصفه ظرفاً زمانياً . كما استخدم الليل، بل ان الشاعر استعار من النهار صورة هي بحد ذاتها دالة على التحدي وهي صورة الرمضاء مستعرة اي الارض التي ألهبها حر الصيف .

ويتفاوت الشعراء في القدرة الفنية على تجسيد الجو الرهيب الذي يبرز من خلاله التحدي والمضاء .

وبعض من الشعراء يقف عند الليل فلا يورده لمجرد أنه ظرف زماني معتم بهيم . بل يضيف اليه ملامح اخرى يزيده جهامة . ويكون لصورته وقع للرهبة اشد . وهنا يقف الأسود الجعفي ازاء الليل ليضيف اليه ما بدا له من ملامح وذلك بقوله (١٧)

ومن الليالي ليلة مزؤودة غبراء ليس لمن تجشمها هدى
كلفت نفسي حدها ومراسها وعلمت ان القوم ليس لهم غنى

فليل الاسود الجعفي يبث الذعر والهلع في النفوس . ومن تكلف خوضه ضل في غمراته ولم يتبين له المخرج ، فاذا كان هذا شأن الليل فان من الشجاعة الخارقة ان يكلف الشاعر نفسه حدها ومراسها ، على حد تعبيره .ومما يتصل بجو الرهبة ذلك الشعر الذي يتحدث فيه الشاعر عن همومه وأحزانه،وليل

(١٦) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٨٣٧ – ديوان عنترة دار صادر ١٤٣
(١٧) الأصمعيات ١٤٣

الحزين من أشد الليالي وطأة على النفس ،ولذلك ضاق به الشاعر الجاهلي ذرعاً، فعرض له في شعره مستمداً صورة مما يشيع في جنباته من سمات الخوف والرهبة والفزع مجسداً من خلال ذلك احزانه وآلامه . وامرؤ القيس من أدق شعراء الجاهلية تصويراً لأحزانه وهمومه إذ يقترن ذلك بالليل أوثق اقتران . ففي لوحة من لوحات معلقته تتتابع الصور الليلية تتابعاً يتساوق الشكل مع المضمون تساوقاً فنياً يفضي الى الاحساس بأن الليل كابوس ثقيل يجثم على الصدور حتى لايدع للمرء متنفساً .

وليل كموج البحر ارخى سدوله علي بانواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازا وناء بكلكل
الا ايها الليل الطويل الاانجل بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها بامراس كتان الى صم جندل(١٨)

واوضح ما في هذه اللوحة تنوع الصور . فالليل تارة بحر تتلاطم امواجه. وهنا يهدف الشاعر الى تجسيد الظلمة الرهيبة امعاناً في اشعار السامع بأن الهموم التي تمور بها جوانحه ليست من قبيل الهموم العابرة التي يمكن ان يسلو عنها الانسان بسرعة . وانما هي هموم متراكبة ومن خلال «ارخى سدوله» يرى الاستاذ ايليا حاوى ان هناك صورة متوازية وراء الصورة الظاهرة ويعني بها صورة البحر . ويعلل انبعاث الصورة الثانية «ان الشاعر في غفلة الذهول تمثل له الليل وكأنه خيمة هائلة تغمر الكون، وليس الظلام سوى سدول تلك الخيمة الهائلة» (١٩)

وألمح من خلال هذا البيت أن الشاعر عمد الى تشبيه الهموم بأستار سوداء كثيفة تحجب الضوء، وتراكب الصور هو الذي يوحي الينا بسواد هذه الأستار المسدلة لاقتران صورتها بالليل المظلم البهيم .

---

(١٨) ديوان امريء القيس ١٨ – ١٩

(١٩) امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ١٤٩

وتارة اخرى يمضي الشاعر ليستعير صورة الجمل الجاثم على الارض لايريم ليعمق إحساسنا بوطأة الليل على نفسه وهو يجتر آلامه الثقال . هذا الجمل يقترن وجوده الحي بما يحتل من حياة العربي في الصحراء من مهابة وتقدير. انه مثال الضخامة والثقل والتباطؤ . اذن فليلتقط من هذا الحيوان صورة الضخامة والثقل والتباطؤ . فيضيفها الى لوحة الليل عنواناً لكبر همومه التي اقترنت بالليل الذي لايحس بحركته ،ولئن أحسسنا برهبة الليل البهيم وسواده المدلهم من خلال البحر والأستار المسدلة فان الشاعر هنا يجسد لنا ضخامة هذا الليل وثقل وطأته على نفس الشاعر ،ولا بد ان الشاعر قد شهد من خلال المعايشة اليومية إن جملاً قد جثم بكلكله على انسان . او انه تصور مقدار هول المنظر لو ان جملاً جثم على انسان .

ثم تنطلق صرخة الضيق والبرم من الشاعر يريد بمحاولة يائسة ان يدفع هذا الثقل الجسيم الذي أضناه وأجهده ،يصف الاستاذ ايليا حاوي هذه الصيحة بصيحة اليأس والانسحاق (٢٠) وقد حمله على هذا الوصف ما جاء في الشطر الثاني بأن آماله لن تتحقق وان انجلى هذا الليل ووافي النهار بانواره الساطعة . اذن ليست المشكلة مشكلة ليل يلف الكون بسواده فيضيق به صدر الشاعر وانما هي «نفس الشاعر التي أدلهت باليأس والحزن والالم . ووجدانه الذي أثقل بالهم والبؤس والفشل ..... واذن فوصف الليل هنا تجربة وجدانية مفاضة من أعماق الشاعر . لقد أظلم الليل في ضميره وارخى سدوله على أفق خياله فإذا هي سدول همّ لاسدول ظلمة » (٢١)

ثم يفقد الأمل في انجلاء هذا الليل كفقدان الأمل في أن يسرى عن همومه او بعض همومه ،ولذلك نلمح في نهاية مطاف هذا الصراع النفسي استسلاماً مريراً هدأت فيه سورة الغضب والتمرد لنصغي إلى نبرة باكية مشوبة بغضب المستسلم فيتحول الليل إلى كائن رابض على الأرض مشدودة نجومه بحبال قوية إلى جبل ضخم أصم.

(٢٠) المصدر نفسه ١٥٣

(٢١) امراء الشعر في العصر الجاهلي ٢٠٨/١

وقد حمل الدكتور سيد نوفل هذه النفثات الشعورية على أن الشاعر يفلسف الطبيعة . ويصورها على غراره ويسكب فيها فكره .وفي ايضاح هذه الفلسفة استخدم الفن البياني أدق استخدام فبدأ الهم مجسماً في الألفاظ والمعاني (٢٢).

ويبدو لي أن حمل ذلك على الفلسفة أمر ينافي الطبيعة الشاعرية التي ملأت جوانح امريء القيس كما ينافي الفن الذي استولى على زمامه ببراعة متناهية . فالفلسفة وعي متكامل للحياة يتسم بالعمق والاستيعاب بحيث يجعل الانسان صاحب موقف يفسر أحداث حياته في ضوء احكام هي إلى العقلانية اقرب ورؤية محدودة المعالم والسمات . وهذا التعليل الذي اورده الدكتور سيد نوفل يبعدنا عن الجو الشاعري الذي ينسجم فيه القاريء مع الشاعر انسجاماً نفسياً قبل أن يكون انسجاماً فكرياً .

ولعل هذا التعليل لايتفق مع ماذهب اليه الدكتور سيد نوفل في موضع آخر من كتابه.

حيث يقول « وهذه البساطة طبيعية في حياتهم الساذجة التي لم تعقدها الحضارة » ويقول ايضاً « يصف الحاضر المشاهد في غير مغالاة ولا اسراف ،وخياله محدود لايبلغ درجة التخيل وابداع مخلوقات غريبة » (٢٤)

ويقول أيضاً « لكن الشاعر على هذا الصدق دائم الجيشان النفسي شديد الشعور سريع التأثر » (٢٥)

إن ليل الحزين يقترن بالسهد ومجانبة الرقاد فبمقدار تلبد الهموم في حنايا النفس يتجسد الليل الذي يزايل فيه النوم عين المؤرق المسهد . وهنا يعود امرؤ القيس ليتولى صورة الليل مقترناً بالسهد والأرق ، يقول (٢٦)

---

(٢٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ٣٨

(٢٣) المصدر نفسه ٦٢

(٢٤) المصدر نفسه٦٣

(٢٥) المصدرنفسه٦٤

(٢٦) ديوان امريء القيس ١٨٥

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

واستعانته بالليل لتصوير همومه يتجاوز الحد الأدنى لهذه الاستعانة حتى يعمد إلى المجاز الذي يسميه البلاغيون بالمجاز العقلي حيث يسند فعل المبيت إلى الليل نفسه . وكأن الليل هو المؤرق المسهد .ثم يفجأنا بتشبيه سهاد الليل بليل آخر يعاني فيه العائر وجعاً في عينيه .

واذا كان ليل امرىء القيس مصوراً لنزعات رجل مترف يعيش لذاته، ولا يجد في كل ممارساته اليومية مقنعاً يملأ عليه احساسه بالفراغ ، فان هناك رجلاً استبدت به الهواجس والهموم، وأقضت مضجعه قضية تتعلق بكرامته، ذلك هو النابغة الذبياني .

ضاقت الأرض على رحبها بالرجل بعد ان وجد نفسه طريداً مهدداً بالموت إثر وشاية من شانئيه، وهو الرجل الذي تأبى عليه أخلاقه العربية ان يرد موارد التهمة فضلاً عن ارتكاب فاحشة . فهو يبذل جهداً غير اعتيادي لاظهار براءته ،فليله يجسد له هذه الهموم اللاهبة والأحزان المؤرقة ،ذلك الليل هو ليل نفسي، وليس ليلاً علمياً، لأن الشاعر نقض حدود التعقل والمنطق، ونما اليه حالة نفسية جعلته ليلاً يخالف سائر الليالي بتباطئه وعدم انحساره» (٢٧)
يقول النابغة (٢٨) :

كليني لهمٍّ يا أُميمة ناصب وليل أُقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب
تقاعس حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

يقرب النابغة في نزعته الفنية من امرىء القيس في تصور الليل ثقيلا متباطئاً او مشدوداً الى موضع ثابت حتى يئس من زواله.

(٢٧) النابغة : سياسته وفنه ونفسيته ص ١٧٧
(٢٨) ديوان النابغة الذبياني ص ٥٤ — ٥٥

والشعراء الآخرون حين تستبد بهم الهموم والأحزان يغمسون ريشة الفن في سواد الليل يلونون به مشاعرهم ، فاذا بهذه الاحاسيس تستشعر الليل طويلاً لاأمل من انبلاج الصبح بعده، ولذلك تتكرر هذه النبرة عند اكثر من شاعر.

وحين يقول المهلهل :

بات ليلي بالأنعمين طويلا أرقب النجم ساهراً لن يزولا

فان الشطر الاول من بيته ليس إلا حديثاً مباشراً عن طول الليل، وحين تعوزنا الصورة التي تجسد الطول والاحساس به إحساساً ينفذ الى اعماقنا فأن ذلك نلتمسه في الشطر الثاني في حركة الترقب للفجر الذي يمني نفسه بانبلاجه ، ولكن أفق الأمل يضيق حين يرى النجم ثابتاً لايريم، ساهراً لن يزول ، فهنا تضيق النفس بهذا الليل الراكد الجاثم .

والحارث بن عباد يضرب على الوتر في الاحساس بطول الليل من خلال تلبد الهموم في آفاق نفسه ، وذلك من خلال قوله (٣٠) :

قربا مربط النعامة مني للسرى والغدو والآصال
قربا مربط النعامة مني طال ليلي على الليالي الطوال

إن هموم الشاعر هنا تبلغ الذروة ، حتى تصور أنه لم تمرّ به ليلة طويلة كهذه الليلة التي يترقب زوالها لأن وراءه أمراً مهماً يشغل باله ويملأ عليه أقطار نفسه.

ومعاناة المثقب العبدي تبدو لنا واضحة ، واستعانته بالليل في تصوير هذه المعاناة أكثر وضوحاً، حين جعله هو الذي يكدس همومه في صدر الشاعر، يقول المثقب العبدي (٣١)

ظللت أرد العين عن عبراتها اذا نزفت كانت سراعاً جمومها
كأني أقاسي من سوابق عبرة ومن ليلة قد ضاق صدري همومها

(٢٩) شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ١٧٨
(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٧٢
(٣١) ديوان شعر المثقب العبدي ٢٣٦

فليلة الشاعر تقف منه موقف المعاداة حين أترعت صدره بهذه الهموم الثقال ، فاذا كان في شواهد الشعراء الآخرين إلماح الى معاداة الليل للشاعر فإن المثقب قد جسد لنا عداء الليل له بوضوح .

وعدى بن زيد العبادى ينحو في موقفه من الليل منحى الشعراء الآخرين في ذكر الليل الطويل ، وأضاف إلى طول الليل وصفاً آخر نلمح من خلاله ضيقه وألمه بهذا الليل الطويل . حيث يقول (٣٢)

طال ذا الليل علينا فاعتكر ... وكأني ناذر الصبح سمر
من نجيّ الهم عندي ثاويا ... فوق ما اعلن منه واسر
وكأن الليل فيه مثله ... ولقد مما ظن بالليل القصر
لم أغمض طوله حتى انقضى ... أتمنى لو ارى الصبح جشر

إن الهم قد جعله يشعر بطول الليل واعتكاره ، وتعبيره عن هذا الشعور جاء على صورة معادلة بين الهم والليل ، كما جعل لضيقه الذي يعتلج في صدره منافذ الأمل في انقضاء الليل وإسفار الصبح . ومن خلال ذلك نحس أن الرجل يملك طاقة نفسية داخلية يعالج بها معاناته . وقد حافظ على توازنه ولم يكن مستسلما لليأس كما استسلم له امرؤ القيس والنابغة على النحو الذي رأيناه من قبل .وعنترة يستثمر اللون في تصوير حزنه ، فالسواد الذي التمسه لوناً لأحزانه هو من نفثات الأحاسيس الداخلية .فلونه الأسود يشكل في اعماق نفسه عقدة والليل بسواده هو الآخر يشعره بمأساته الشخصية ، كما هو اللون الذي يتسق مع همومه وأحزانه ،ومن أجل ذلك كان سواد الليل هو سبيله إلى تصوير مشاعره . كما هو واضح في قوله (٣٣) .

ترى هل علمت اليوم مقتل مالك ... ومصرعه في ذلة وهوان
فان كان حقاً فالنجوم لفقده ... تغيب ويهوى بعده القمران
لقد كان يوماً اسود الليل عابساً ... يخاف بلاه طارق الحدثان

(٣٢) ديوان عدى بن زيد العبادي ٥٩
(٣٣) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٨٧٦

ولأكثر من شاعر إشارة خاصة إلى ليلة بعينها يسمونها ليل التمام (بكسر التاء) اطول ليلة من ليالي الشتاء وهي عندهم رمز لأشد مايعانيه الشاعر من ضيق وبرم يصلان حد الرهبة والفزع .

وليل التمام لاتختلف أجواؤه في جانب تصوير الجو الرهيب عن بقية الليالي الا بما تلقيه في أعماق النفس من استشعار الطول والتباطؤ، أو بالاحرى سرعة استشعاره الطول والتباطؤ . وقد يشعر السامع شدة ما يلقي الليل في أعماق النفوس من ظلال ثقيلة بتوافر عناصر أخرى هي التي تعمق الاحساس برهبة الليل ، ولكن ليل التمام بحد ذاته يلقي في النفس هذا الشعور الطاغي بصورة مباشرة دون تضافر العناصر الاخرى،وربما توفرت عناصر اخرى في البيت والمقطع ،ولكن مع ذلك يظل ليل التمام مؤدياً المهمة الفنية او الشعورية بذاته .

يقول امرؤ القيس (٣٤)

أعني على التهمام والذكرات يبتن على ذي الهم معتكرات
بليل التمام أو وصلن بمثله مقايسة ايامها نكرات

إن أجواء البيتين توحي بالهموم والادكار،ولكنه عبر عن مشاعره هذه بربطها بليل التمام . ومن شدة ما يعاني عمد الى إعطاء الملمح الأعمق لهذا الشعور . فلم يكتف بليل واحد من ليالي التمام . بل ضاعفه بقوله : او وصلن بمثله فيتعمق الاحساس بما يبث من شكوى وألم،ومن خلال جو غير جو الحزن والالم يعرض امرؤ القيس لليل التمام اذ يقول (٣٥) .

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برد انيابها اذا طرب الطائر المستحر
فبت اكابد ليل التمام والقلب من خشية مقشعر

(٣٤) ديوان امريء القيس ٧٨ — ٧٩
(٣٥) المصدر نفسه ١٥٧ — ١٥٨

إنه على موعد، فكان الجو مشعراً بالأنس إلا أنه مشوب بالخوف، ممّ يخاف امرؤ القيس ؟ لاندري . وليس المهم ان ندري. انها الذي يهمنا ان نحس بأن امرأ القيس خائف . وقلبه من شدة الخوف قد اعترته هزة وقشعريرة، وكأني به ينتظر امراً ويخشى ان تفوته الفرصة . وما كان يعانيه من ثقل الوقت، ووقت المنتظر بطيء ثقيل. وما كان يخشاه أن يحول دون تحقيق امنيته كل ذلك يرسم جو الرهبة . وليس أوقع في النفس من رسم الصورة من خلال ليل التمام الطويل بذاته والطويل من خلال معاناة الشاعر المنتظر .

ويرتبط ليل التمام عند متمم بن نويرة بمكرمة من المكارم التي يعتد بها العرب ضمن ممارسة الحياة اليومية حيث يقول (٣٦)

لعمرى لنعم المرء يطرق ضيفه اذا بان من ليل التمام هزيع
بذول لما في رحله غير زمج اذا ابرز الحور الروائع جوع

إنه يثني على صاحبه لكرمه . وقد يكون هذا المعنى معاداً معروفاً عند الشعراء، ولكن ليل التمام يمنح ممارسة الكرم ملمحاً معنوياً يتسم بالعمق ودلالة فنية يتجلى فيها الوضوح والدقة . إنه يخلق لهذه الخصلة اطاراً خاصاً تتحرك ضمنه على صورة متميزة، فليل التمام اكثر ليالي الشتاء طولاً، وضيوفه يفدون عليه بعد ان يمضي هزيع من هذا الليل الطويل فينهض لأداء الواجب والوقت وقت إخلاد الى النوم والراحة . فهو يضحي براحته ويظل ساهراً قائماً على تكريم ضيوفه طوال ذلك الليل غير برم أو ضجر ، وحين نرصد ملامح الرهبة تستوقفنا ظاهرة الرحيل ، وهي أمسّ رحماً وأقرب صلة بمشاعر الرهبة والتوجس ، ذلك ان ارتباط العربي بأرضه وتعلقه الوجداني بها جعلاه يحس بثقل وطأة الرحيل على نفسه ، وهو — مع ذلك — مضطر الى شد الرحال بين حين وآخر، مدفوعاً اليه بجملة عوامل هي من مقتضيات حياته .

---

(٣٦) المفضليات ٢٧٢

« كانت حياة الناس – اذن – مرتبطة بالارض ، وكان هذا الارتباط يحكم علاقاتهم الاجتماعية ويوجهها الى حد بعيد ، ويصبغها بلونه الخاص من اللقاء والاجتماع الى الفرقة والقطيعة ، وكان الأدب يصوغ هذه الوقائع الاجتماعية بدقة وأمانة، فيرسم اشكالها ويعين ملامحها ويحدد طبيعتها ثم يلونها ويغنيها بلمسة الفن الساحرة، وكانت الرحلة – بلونيها – واحدة من ابرز هذه الوقائع » (٣٧)

فتارة يكون الرحيل تحدياً وقوة، وتارة اخرى يكون باعثاً على الحزن والألم ، وكلاهما يؤلف لوحة الرهبة والتهيب والتوجس .

يقول اعشى قيس (٣٨) :

فدع ذا ولكن ربّ ارض متيهة ... قطعتَ بحرجوج إذا الليل اظلما
بناجية كالفحل فيها تجاسر ... اذا الراكب الناجي استقى وتعمما
ترى عينها صفواء في جنب موقها ... تراقب كفي والقطيع المحرما
كأني ورحلي والعِنان ونمرقي ... على ظهر طاو اسفع الخد أخثما

هذا رحيل يمثل التحدي ، وهو رحيل لابد منه ، ولا بد إزاء ذلك أن يمضي في هذا التيه الذي يعرض نفسه فيه الى مخاطر ، والليل البهيم يحف بهذه الرحلة الخطيرة .

من خلال ذلك نحس أن هذا الرحيل كان من اجل غاية قد لايفصح الشاعر عن مدى خطورتها في حياته، ولكن جو التحدي الماثل خلال الابيات هو الذي يشعرنا بخطورة مايقدم عليه ، ولكن امرأ القيس يسمعنا نبرة غير هذه النبرة التي عرفناها عند أعشى قيس حين يقول (٣٩) :

---

(٣٧) الرحلة في القصيدة الجاهلية ص ٢٠
(٣٨) شعراء النصرانية قبل الاسلام ص ٣٧٩
(٣٩) ديوان امريء القيس ١٦٨

الا انعم صباحاً أيها الربع وانطق وحدث حديث الركب إن شئت واصدق
وحدث بأن زالت بليل حمولهم كنخل من الأعراض غير منبق

انه يهيم في ديار الراحلين ويرجو الربع ان يتحدث ، فهو ليس قادراً على أن يفصح عن مشاعره لما اصابه من ذهول وما اعتراه من حزن .

اما عنترة فانه كذلك يقرب من حديث امرىء القيس في قوله (٤٠)

إن كنت أزمعت الفراق فانما زمت ركابكم بليل مظلم
ماراعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

فهو يقف حزيناً إزاء رحلة الحبيبة ، والحزن من شأنه ان يلون الحياة بالقتامة والرهبة ، اذن لابد ان يكون الليل مصوراً لهذا الاحساس المتلون بالقتامة والكآبة ، وربما كان الرحيل في وضح النهار ، ولكن احساس الشاعر الحزين هو الذي يضفي عليه غلالة الليل القائمة الكثيبة .

ولعل الانسان في ساعة الرحيل يمر بحالة ذهول ووجوم ، لا قبل له بالافصاح عما يجيش في جوانحه ، فيلتزم الصمت الرهيب ، وما أن يفرغ الى نفسه بعد سويعات هدأة تتفجر المشاعر الحزينة ، وتتلاحق في خضمها الذكريات الحبيبة ... وترتفع هذه المشاعر ذروتها حين يجن الليل ويهدأ كل شيء من حوله ، فها هو ذا بشر بن ابي خازم يصور لنا هذه الخلجات التي انبجست من حنايا نفسه المكلومة الحزينة بعد ان أقبل عليه الليل .

يقول بشر (٤١) :

فبت مسهداً أرقاً كأني تمشت في مفاصلي العقار
أراقب في السماء بنات نعش وقد دارت كما دار الصوار
وعاندت الثريا بعد هدء معاندة لها العيوق جار

---

(٤٠) ديوان عنترة – تحقيق مولوي ١٨٨ .

(٤١) ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي – ص ٦٥ – ٦٦

فان تكن العقيليات شطت بهن وبالرهينات الديار
فقد كانت لنا ولهن حتى زوتنا الحرب أيام قصار
ليالي لا اطاوع من نهاني ويضفو تحت كعبي الازار

ان الشاعر حشد لنا من خلال هذه الصورة الليلية الموحية كل عناصر الاضطراب والألم بعد أن شطت العقيليات اللواتي كان له معهن أيام فهو مسهد مؤرق يراقب من شدة اضطرابه وحزنه بنات نعش : تلك النجوم المجتمعة في السماء حتى صورة نعش محمول على الاكتاف ،يقرن بهذه الصورة الموحشة رحيل العقيليات ،فالرحيل عنده هو الموت ،وازاء الموت تضطرب الجوانح وتتحشد الآلام .

ورحيل المتلمس لايكون إلا ليلاً ،ولذلك فإن الليل يأخذ بعداً عميق الغور في نفس المتلمس ،ذلك أنه طريد منفي يعاني الغربة والحنين ،لايقر له قرار ولايهنأ له المكوث في موضع ، يقول (٤٢) :

إن العراق وأهله كانوا الهوى فاذا نأى بي ودهم فليبعد
فلتتركنهم بليل ناقتي تذر السماك وتهتدي بالفرقد

٢. **ليل الألفة :** —

مما أسلفنا ينتصب الليل امام الشاعر الجاهلي كئيباً موحشاً او رهيباً مخيفاً من خلال احساس الشاعر بمعاناة ثقيلة الوطأة يتكلف ازاءها طاقة وجهداً سواء كان شعورياً كالحزن او بدنياً كالاقدام والتحدي .

وماذا يكون الليل عند شاعر انتفت عنده هذه المعاناة الشديدة الأليمة ؟ أيظل يرى في الليل عالمه المتوحش الكئيب ؟ أم أن نظرته تتغير تبعاً لتغير مشاعره ؟ ماذا يكون الليل حين يرتبط بسكن النفس وهدوئها او العيش الشعوري في ظلال الذكريات او غشيان عالم الحب او اللهو . او حين ينغمر في عالم الممارسات الكريمة التي يعتد بها ويفاخر ؟

(٤٢) شعراء النصرانية قبل الاسلام ج١ ص ٣٤١

وهنا يكون لليل بعد آخر نريد أن نتلمس ملامحه فيما بين ايدينا من ميراث الشعر الجاهلي، فاذا ما ارتبط الليل بذكريات الانسان الحلوة فان اجواء ذلك الليل تنشر الدعة والسكينة، واذا مااستبدت به الأشواق طاف ببصره في الكون الذي يلفه هدوء الليل وسكينته، فاذا بالنجوم تؤنسه، والبدر يتمثل له رفيقاً حانياً او يتمثل له ذلك الوجه الذي يرتبط واياه بأجمل الذكريات.

إن الليل هو الفرصة السانحة لعمرو بن قميئة ليلتقي مع خيال أمامة. يقول عمرو (٤٣).

نأتك أمامة الا سؤالا والا خيالاً يوافي خيالا
يوافي مع الليل ميعادها ويأبى مع الصبح الا زيالا
فذاك تبدل من ودها ولو شهدت لم توات النوالا

انه يعيش مع الذكريات وان كان يائساً من نوالها والليل يفجر مكامن المشاعر عند سجوه وانسدال استاره.

ومغامرات امرىء القيس التي تتقيد بظرف زماني معين لم تحل بينه وبين أن يجعل الليل متميزاً بين ساعات يومه يهيج خلاله الهوى ويذكر ايام اللقاء.

يقول امرؤ القيس (٤٤).

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان
ديار لهند والرباب وفرتني ليالينا بالنعف من بدلان
ليالي يدعوني الهوى فأجيبه وأعين من اهوى إلي روان

وقد يشعر الجو بشيء من الحزن والألم، ولكن الذكريات تنساب هادئة هدوء الليل. حانية حنو سكونه الشامل وكأنه وجد في الليل انيساً لوحدته يبثه مااعتراه، ويحدثه بذكريات امسه الدابر.

---

(٤٣) ديوان عمرو بن قميئة ٤ ٥٥
(٤٤) ديوان امريء القيس ٨٥

فاذا كانت الليالي الماضيات قد شهدت لقاءاته . فإنه هناك ايضا يستحضر في اطار الليل مشاهد من تلك الذكريات وكأنه اودع الليل اسراراً لايعرفها سواهما .

وترتبط ليالي المزرد بن ضرار بأجمل الذكريات في مثل قوله (٤٥).

وألهو بسلمى وهي لذّ حديثها لطالبها مسؤول خير فبـاذل
وبيضاء فيها للمخالم صبوة ولهو لمن يرنو إلى اللهو شاغل
ليالي اذ تصبي الحليم بدلها ومشي خزيل الرجع فيه تفاتل

ويتساءل المرء فيما اذا كان ربط الذكريات بالليل امراً تقليدياً،وبوقفة متأملة ندرك ان ذلك يضيف إلى الصورة بعداً جمالياً ومضموناً متلاحماً تلاحماً طبيعياً مع اجزاء الحدث الاخرى فالليل مسرح العشاق ، وغلالته سجف توفر الأمان للمتوجسين خيفة من الرقباء . الا يمنح الليل هذا الحدث انسيابته المحببة ؟ وماذا يستطيع النهار ان يضيف من ملامحه إلى مثل هذا الجو ؟ أيضيف اليه من صخبه وضجيجه ام من النظرات التي تتفحص كل شيء وترى واضحاً امامها كل شيء .اذن يكون الليل الحاني الأليف جزء لايتجزأ من ضرورات الحدث. والمرقش الاكبر حين يقول (٤٦) .

سرى ليلاً خيال من سليمى فأرقني واصحابي هجـــود
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهـــم بعيـد

فانه يجد الليل مثار الذكريات فيستعرض احداث امسه فيزداد حنيناً وشوقاً ولهفة ولم يكن ذكره لليل اضافة تقليدية وانما وجد نفسه مؤرقاً دون أصحابه الذين أخلدوا إلى الرقاد . والأرق في الليل مظهر من مظاهر الاندماج مع عالم ذكرياته . والأرق ليس حالة انفعالية يضيق بها المرء وانما هو معايشة وجدانية صادقة مع هذه الذكريات وقد يكون الأرق باعثاً على الاستمتاع

---

(٤٥) المفضليات ٩٤

(٤٦) المفضليات ٢٢٣

الكامل بذكرياته . ولئن رافق ذلك شيء من الألم فان الشاعر عندئذ يستعذب ذلك الالم ويجد فيه متعة كبيرة ،والبيت الثاني يوضح ابعاد هذه المعايشة ،فقد بات يدير امره على كل حال متأملاً مطيلاً للتأمل باحثاً عن الوسيلة التي بها يحقق امنياته ومع هذا فانه ظل مترقباً يوم اللقاء على بعد ديارها عنه .

ويهيم بشر بن ابي خازم في خضم ذكرياته فيستعرض الصورفي هدوء وسجو. فيقول (٤٧)

جددت بحبها وهزلت حتى كبرت وقيل انك مستهام
وقد تغني بنا حيناً ونغني بها والدهر ليس له دوام
ليالي تستبيك بذى غروب كأن رضا به وهنا مدام

وحين احس ان الاعوام تتخرم من عمره لاذ بالذكريات وتعلل بالاماني ولم يبال بما يقال عنه انه مستهام على تقدم العمر به . فالروح مازالت شابة مستطلعة .

ولعل ذاكرته تحتفظ بصور مازالت تعجبه ،كأسنان صاحبته اللامعة وارتشافه من رضابها .فلمعان الاسنان يبدو أجمل وأبهى وكأنه لمعان الصباح في مدلهم الظلمة. والليل هو الوقت الاكثر ملائمة لمجالس الشراب.

وكما أن ليل امرىء القيس فيما مضى من فصول البحث كان ليل هموم وأحزان ،فان ليالي أخرى يحيا امرؤالقيس في ظلالها حياة انس ودعة وألفة.حين ينفض عن نفسه همومها ويدلف إلى مراتع اللهو والانس . فيحس بمتعة الليل وجماله لارتباطه بذلك الجو الذي ينطلق خلاله الشاعر انطلاقة يرمي ازاءها الهموم والاحزان جانباً .

يقول امرؤ القيس (٤٨) .

---

(٤٧) المفضليات ٣٣٤

(٤٨) ديوان امريء القيس ١٣ — ١٤

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت احراساً اليها ومعشراً عليّ حراصاً لو يشـرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل

انه لايصرح بالليل ولكن القارىء يحس مباشرة أن جو هذه المغامرة اللطيفة يحوطه ستار الليل الدامس .فهناك الاحراس الذين يرصدون في الليل كل حركة .والثريا في السماء وثياب النوم ولبسة المتفضل .

وها هو ذا لبيد بن ربيعة يصور انطلاقة الانس والمرح في صورة ليليةلذيذ لهوها وندامها ، يقول (٤٩)

بلَ أنت لاتدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامهـا
قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

ويتم تصور الليل على أنه مراح الانس وملعب الهوى حين يسكب الشاعر عليه من روحه الطلقة المرحة ،وإلا فكيف يكون الليل — وهو ظرف زماني معين— تارة غولاً يفترس النفوس أو جبلاً يجثم على الصدور أو بحراً تتلاطم أمواجه وتارة أخرى سمراً وأنساً ولذة وانطلاقة .

وليل الذكريات عند أوس بن حجر ساج هادىء .وينساب خيال من تماضر بعد مضي شطر من الليل ليكون الجو أكثر هدوءاً وأوفر أنساً .
يقول أوس (٥٠) :

ألم خيال موهنـاً من تماضرا هدواً ولم يطرق من الليل باكـرا
وكان إذا ما التم منـهـا بحاجة يراجع هتراً من تماضر هاتـرا

ويكون مفاجأة مذهلة للشاعر حين يلم به خيال من تماضر .وكأنه في سنة من نوم ، وكثيراً مايضم الليل ذكريات العشاق في اطاره مضيفاً عليها استار هدوئه وسكونه .والعاشق يلوذ بالليل يبثه لواعجه ويناجي نجومه .

(٤٩) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ١٧٥
(٥٠) ديوان اوس بن حجر ٣٣

والسهر عند عنترة أمل تنفتح منه الكوى والمنافذ، ليطل منها على عالم يحتضنه السكون ويؤطره الصفاء ؛ يقول (٥١)

سأضمر وجدي في فؤادي وأكتم وأسهر ليلي والعواذل نوم
وأطمح من دهري بما لاأناله وألزم منه ذل من ليس يرحم

انه غاضب ولكن في هدوء . والليل وهدوؤه مستراح لهذه النفثات التي طوى عليها أضلعه .

ومن ملامح ليل الألفة ما يضفيه الرجل الكريم على ضيفانه من فضل كرمه . وطيب أريحيته وسماحة نفسه .ويقرن ذلك بالليل ليكون لكرمه دلالة خاصة.

فالقيام باكرام طارق الليل هو أقوى دلالة وأشد وقعاً من اكرام ضيفان النهار .فطارق الليل محرج غاية الحراجة شديد الحاجة إلى من يأويه .ويهيئ له مايذهب عنه حيرة النفس ووعثاء الطريق. ولذلك كان دأبهم أن يوقدوا النيران على الأكمات العالية وروؤس الجبال ليستدل بها طراق الليل ان هناك ديار قوم يلاذ باكنافهم ويستراح في رحيلهم .يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي(٥٢)

وطارق ليل كنت حم مبيته إذا قلّ في الحي الجميع الروافد
وقلت له أهلا وسهلاً ومرحباً واكرمته حتى غدا وهو حامد

ولقد أعطى لنفسه ميزة عن الآخرين حيث لايهمهم أمر الطارقين الحيارى في الليل حيث يعز الانيس ويفتقد الدليل .

ويرسم عبد قيس بن خفاف للناس ملامح الرجل الكريم الذي يكون على أهبة الاستعداد لتكريم ضيوفه دون أن يضيقوا بهم ولاسيما في الليل حين تكون الحاجة إلى الرعاية أشد .

يقول (٥٣) :

والضيف أكرمه فإن مبيته حق ولا تك لعنة للنزل
واعلم بأن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وان لم يسأل

(٥١) شعراء النصرانية ٨٦٥ ؛ ديوان عنترة – دار صادر ٢٠٨
(٥٢) المفضليات ٣٢٦
(٥٣) المفضليات ٣٨٤

ويفخر ربيعة بن مقروم الضبي في قوله (٥٤)

ومولى على ضنك المقام نصرته إذا النكس أكبى زنده فتذبذبا

وأضياف ليل في شمال عرية قريت من الكوم السديف المرعبا

بأنه يكرم ضيفه على مايعاني في ضيق ذات اليد . فلا يدعه مخذولاً . ثم يعود مباشرة إلى تعميق صورة الكريم باشارته إلى أضياف الليل ، واي ليل ؟الليل الذي يشتد فيه البرد اشتداداً حيث تكون حيرة الطارقين أشد .ولهفتهم إلى السكن المريح أقوى .والمتلمس يرسم لنا صورة للكرم يوفر لتكاملها عناصر شتى ويجعل الليل جزء من هذه الصورة ولكنه جزء مهم لايستغنى عنه ،يقول(٥٥)

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالثوب معصم

عوى في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نوم

فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له عند اتيان المحبين مطعم

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم

فالريح عاتية والظلمة تسد الآفاق ،وهناك ضيف يريد لنفسه ملاذاً ومستراحاً ، فاذا مااستنبح الكلاب عرف صاحب الدار أن قدم عليه ضيف ،فيخف إلى استعماله وإكرامه ،ويوفر له من الأجواء الهادئة ما يدفع عنه النصب الذي تجشمه .

فالليل عمق هذه الصورة وأعطى لها مدلولاً متميزاً، وبهذا يكون الليل في شعر الكرم مفعماً بالهدوء والسكينة النفسية مما يخلد الانسان عنده إلى الراحة قرير العين مطمئن البال .

الليل الزمن :

أما الليل زمناً فهو أقل الوجوه قيمة سواءاً من الناحية المعنوية أم من الناحية الفنية ،فهو مجرد ظرف زماني للحدث لايمنحه بعداً أساسياً أو بعداً ثانوياً .

---

(٥٤) المفضليات ٣٧٦

(٥٥) شعراء النصرانية قبل الاسلام ٣٤٩

وامرؤ القيس حين يذكر سواد الليل في معرض حديثه عن النجوم في قوله (٥٦) :

تلك النجوم إذا حـانت مطالعها شبهتها في سواد الليل أقباساً

فان ذلك قد يكون من الاطناب الذي يقرب أن يكون حشواً ـ كما يقرر البلاغيون ـ فالنجوم لاتتراءى إلا في الليل ،ولو رفع من القصيدة سوادالليل وسد الفراغ بأية عبارة مناسبة للسياق لم يتعرض الحدث لأي اهتزاز .

وكذلك الامر في قوله (٥٧) :

عجبت لبرق بـلـيل أهـــل يضيء سـنـاه بأعلى الجبـل

فالبرق لايظهر بسناه المضيء إلا في الليلة الظلماء .

وحين يقول الحصين بن حمام المرى(٥٨):

نطاردهم نستنقذ الجـرد كالقنا ويستنقذون السمهري المقوما

عشية لاتغني الرماح مكانها ولا النبـل إلا المشرفي المصمما

لدن غدوة حتى أتى الليل ماترى من الخيل إلا خارجياً مسوما

فانه لايوظف الليل إلا اطاراً زمنياً بحتاً يحدد به مدى امتداد الحدث،فالحدث يستغرق البعد الزمني من لدن الغدوة حتى مجيء الليل ، فالليل بذلك لايشكل من لوحة الحدث جزءاً من أجزائها ،ولاصورة تضيء جانباً من جوانبها ، أو صدى لخلجات نفسية للشاعر على النحو الذي وقفنا عليه من خلال لوحات الرهبة والالفة . . .

وحديث عبيد بن الأبرص عن البرق يكاد يكون تكراراً لحديث امرىءالقيس فهو مثله يرقب البرق في الليل . والليل لايمنح الحدث حركة ولافاعلية لأن

---

(٥٦) ديوان امريء القيس ٤٦١

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٦١

(٥٨) المفضليات ص ٦٥

وروده مقترناً بالبرق هو الذي يسلب منه كل دلالة معنوية أو فنية . وذلك في قوله (٥٩) :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه من عارض كبياض الصبح لماح
دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح

وواضح اننا لو طرحنا جانباً قوله (ابيت الليل) لظل الحدث قائماً بنسه غير تارك ذلك ثغرة أو خللاً .

ومما يحسن الاشارة اليه في هذا الموضع أن نماذج الليل الزمن ضئيلة ، ولذلك اكتفينا بهذا المقدار الذي يحدد لنا مدلول الليل الزمن عند الشعراء .

الدراسة الفنية :

١ ــ الألفاظ والتراكيب : تأتي لفظة الليل عند الشاعر الجاهلي ــ من خلال نصوص البحث ــ مقترنة بالالفاظ والتراكيب الجملية التي تتضافر مجتمعة لمنح الليل الزمني ملامحه النفسية المتسقة مع الرهبة تارة ومع الالفة تارة أخرى . فالليل يستمد مبررات وجوده عنصراً من عناصر اللوحة مما يحيط به أو يتلاءم معه.

ففي نص المرقش الاكبر (٦٠) :

ودوية غبراء قد طال عهدها تهالك فيها الورد والمرء ناعس

تحتشد الالفاظ الجزلة والتراكيب الموحية بالرهبة، وجعل كل ذلك مرتبطاً بآصرة فنية ومعنوية وثيقة مع الليل الدامس . فالدوية الغبراء ــ تهالك ــ منكراتها ــ عيهمة ــ دامس ــ ليلاً طويلاً ــ ترقاء ــ البوم ــ النواقس ــ الروامس . كل هذه الالفاظ تخلق الجو الرهيب ، ويكون الليل بسواده أظهر عناصر هذه اللوحة ، لأن خوض العربي للصحراء أمر معتاد لاغرابة فيه ، ولكن حين يقوم باجتيازها في ليل دامس فان ذلك يعطي لحركته هذه ملمح القوة والتحدي ، لأن الليل الدامس تكمن وراء استاره المدلهمة مخاطر شتى .

وكذلك الاعشى (٦١) قرن تحديه بالليل من خلال الفاظ وتراكيب تعمق

(٥٩) ديوان عبيد بن الابرص ص ٣٤
(٦٠) ينظر الهامش ٩ ــ
(٦١) ينظر الهامش ١٠

الاحساس بضخامة التحدي ،ولكن التحدي كان من الممكن أن يفقد أشياء كبيرة من ملامحه لو لم يقترن ذلك بالليل .

فظهر الترس – موحشة – الجن – زجل – القيظ – طليح – فتل – البرق – الشعل – ، انما هي عناصر حركية فعالة تتلاحم مع الليل بصورة اتسقت مدلولاتها وتناغمت ايقاعاتها مع الجو النفسي الذي يستشعر الرهبة .

ويقرن الأسود الجعفي(٦٢)ليله بكل مايوحي بالرهبة من الالفاظ والتراكيب . فليلته مزؤودة : أي مفزوعة مرعبة تبعث في جنبات النفس مشاعر من الخوف شتى . ومن خلال هذا الجو النفسي الرهيب يقوم برحلته الصعبة التي تمثلت ملامحها من خلال : غبراء – تجشمها . كلفت – مراسها .

وعدي بن زيد العبادي (٦٣) يجسد من خلال طول الليل واعتكاره ،ومن خلال الهم الثاوي مدلول الرهبة والخوف .

وحين يصل بنا المطاف إلى نماذج من ليل الألفة نحس أن للألفاظ والتراكيب أصداء غير التي عهدناها في شعر الرهبة .

فعمرو بن قميئة (٦٤) يختار مع الليل مايوحي بالسجوّ والسكينة :خيال يوافي – ميعاد، وذاك تبدل من ودها – انها لنبرات توحي بانسيابية مشاعر عمرو مع الذكريات اللطاف التي يأنس بها في ظل ليلة هادئة ساجية .

وامرؤ القيس (٦٥) هو الآخر يستعيد ذكرياته في ترنيمة هادئة لطيفة يسري بها عن احزانه ، حيث أن هذه الاحزان لاتحتدم احتدام امواج البحر ،انها ساعة سلو وتلذذ بالذكريات ...إنه لايضيق ذرعاً بهذه الذكريات ،ولذلك جاءت النبرات في غاية من الروعة والهدوء .

---

(٦٢) ينظر الهامش ١٧

(٦٣) ينظر الهامش ٣١

(٦٤) ينظر الهامش ٤٢

(٦٥) ينظر الهامش ٤٣

وليل المزود (٦٦) تكتنفه الألفاظ الموحية بالهدوء النفسي والسكون الشامل : وأهو — لذ حديثها — مسؤول خير — بيضاء — صبوة — يرنو — اللهو — تصبي — دلها — خزيل — كل هذه الالفاظ مما تألفه النفس وتهواه ، وترسم بها لوحة شفافة الرؤى حبيبة الملامح والخطوط ، والليل من خلال هذه اللوحة يضفي على الجو وشاحاً من الالفة والدعة والسكينة.

وتتضح كذلك انسيابة الالفاظ والتراكيب الرقيقة العذبة من خلال حديث اوس بن حجر (٦٧) : ألم خيال — موهناً — هدواً — الم منها —

٢ — الموسيقى : لاتنحصر الموسيقى في العمل الشعري في هذا الوزن العروضي الذي تعارفنا على ضرورة توافره في كل قصيدة ، وانما يتعدى مفهوم الموسيقى هذا الجانب الى جوانب اخرى تتمثل في الانسجام الكائن بين حروف الالفاظ عموماً وبين الالفاظ نفسها ثم بين التراكيب التي تؤلف البيت او المقطع.

فهذا الايقاع الذي نتمثله من خلال قراءتنا لبيت او لمقطع انما هو «ذلك الخليط من التوقع والارضاء والدهشة وخيبة الامل الذي ينشأ عن تتابع المقاطع والحركات ولا يصل صوت الكلمات الى اقوى مفعول له إلا خلال الايقاع » (٦٨)

وحري بالإشارة ايضاً الى « ان التجربة الغنية التعقيد في العمل الادبي كثيراً ماتقرر الطريقة التي تنبر بها الكلمات وتدفع الشاعر الى الضغط على موسيقى وايقاعات حروف معينة بالذات تتدافع في مخيلة الشاعر لتشكل المفردات المعبرة عن الواقع النفسي له من خلال معاناة التجربة » (٦٩)

ومن هنا نريد ان نقف على طبيعة الإيقاع الموسيقي التي وافت في ضوئها ألفاظ الرهبة والألفة وتراكيبها ، ومدى اتساق هذا الايقاع مع عنصر الليل.

يحس القارىء لشعر الرهبة بضخامة الأداء تنبثق من خلال الالفاظ والتراكيب وأصداء ايقاعية تتناسب مع الجو النفسي الذي يرسم الشاعر خطوطه العريضة.

---

(٦٦) ينظر الهامش ٤٤

(٦٧) ينظر الهامش ٤٩

(٦٨) النقد النفسي عند إ. أ . ريتشاردز ص ١٣٣

(٦٩) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ٤٣٠

فتتدخل الحروف المجهورة تدخلاً حاسماً في احاطة الليل بتلك الاصداء الضخمة التي تتناهى الينا من خلال الليل، فيزداد الشعور بوحشة هذا الليل ورهبته من امثال: دوية – طال – تهالك – قطعت – عيهمة – نار – ترقاءُ . البوم – النواقس – دبت – ظلماته – حصينة اعاليها – تجاوزته – مدلهمة – أهم – نكس – عظيم – اجتاز – اعبس – تنائفهُ – هاجرة – هام الرجال – الصفائح – يقبض الطرف – البيداء – اطوي – معتكر – مزؤودة – الهموم – مصامها – اقاسيه – تضاعف – تقاعس – قرّبا – واعتكر – جشر .

تمتلك هذه الألفاظ قدراً وافياً من قوة الأداء والموسيقية المتوائمة مع جو الرهبة التي يعمقها الليل فيتضاعف الشعور بأن الأمر على غاية من الأهمية.

ومما يحس به القارىء أن الأبيات غالباً ماتكون على صورة تراكيب مجزأة تحدث في اثناء القراءة ايقاعاً واضح الأصداء، وهذه التراكيب المجزأة تتفاوت طولا وقصراً، فأحياناً تجدها مبنية على لفظة واحدة ، واخرى على اكثر من لفظة، واحياناً على شطر من بيت، وقلما يتجاوز ذلك الى الشطر الثاني . .

ودوية غبراء / قد طال عهدها / تهالك فيها الورد / والمرء ناعس /
قطعت الى معروفها / منكراتها / بعيهمة / تنسل / والليل دامس/
تركت بها / ليلاً طويلاً / ومنزلاً / وموقد نار / لم ترمه القوابس/(٧٠)

* * *

وبلدة / مثل ظهر الترس / موحشة/ للجن بالليل / في حافاتها زجل/
لا يتنمى لها / بالقيظ يركبها / الا الذين لهم فيما اتوا / مهل/

* * * * *

وصحابة / شم الانوف/ بعثتهم / ليلاً / وقد طال الكرى / بطلاها /
وسريت في وعث الظلام/اقودهم / حتى رأيت الشمس زال ضحاها /

* * * * *

(٧٠) هذه الخطوط تشير إلى الايقاعات المختلفة في داخل البيت

اطوى فيافي الفلا / والليل معتكر / واقطع البيد / والرمضاء تستعر /
ولا أرى مؤنساً / غير الحسام / وان قل الاعادي/غداة الروع /أو كثروا/

* * * *

ومما ينبغي التنويه به أن هذه التقسيمات الايقاعية تأتي لتخدم لوحة الليل وتضفي عليها جواً مشحوناً بالرهبة والتوجس والترقب ، وكأنها ضربات متوالية منغمة تتناهى الى الآسماع من خلال الليل الساجي الهادىء، فيبعث في النفوس رهبة نزيل الإحساس بسجوه وهدوئه ... هذه الايقاعات المتوالية تصور انفاساً لاهثة تقطعت من هول الموقف وشدة الحركة وعنف التصدي والاحتمال. وهذا ينسجم مع الليل اكثر من أي ظرف زماني آخر .

ترى ماذا سيمدنا به شعر الالفة من الألفاظ والتراكيب التي تعمق احساسنا بجمال الليل وهدوئه وسكونه لنزداد مع الشاعر متعة وألفة وبهجة .
إن الأصداء الضخمة العنيفة تكاد تختفي من خلال مابين ايدينا من نصوص. فالحروف الهامسة الرقيقة تشكل اجزاء اللوحة الليلية ، وترسم ابعاد الجو الذي ينشد الشاعر في ظلاله الألفة والسكينة :

نأتك — خيالا — يوافي — ميعادها — الصبح — زيالا — ودها — لم توات — نوالا — شجاني — ديار — يدعوني — الهوى — اهوى — روان .
الهو — لذ — خير — باذل — بيضاء — صبوة — يرنو — تصبي — الحليم — دلها — الرجع — تفاتل — سرى — هجور — حال — ارقب — هزلت — مستهام — تغنى — تستبيك — رضاب — مدام — موهناً — هدواً — مبيت .

إن طبيعة هذه الالفاظ تأبى ان ترتفع بها نبرة الصوت عند الانشاد ، فهي الى الهدوء والمناجاة أقرب ، ومن خلال ذلك تتجلى ملامح الألفة تحت استار الليل الوادع السمح .

ويرى ريتشاردز ان الايقاع – والوزن نوع منه – ليست وظيفته الحقيقية في الشعر التلاعب اللفظي او التتابع الصوتي وانما وظيفته الحقيقية تنحصر في انه يعكس شخصية الشاعر ويصور انفعاله تصويراً صادقاً (٧١) .

والتركيب في شعر الليل هي الاخرى تأتي منسابة دون ان يقطع اوصالها لهاث المتعب الخائف ، والأصداء متوزعة بشكل متناسب تنبيء بامتلاك الوعي ، وهدوء النفس وانسيابها مع العالم الودود الرفيق ... وعودة الى قراءة نماذج الألفة تقفنا على هذه الظاهرة الفنية المتميزة ، التي تتوالى فيها التراكيب لتضفي على اللوحة الليلية قدراً وافراً من المدلول الرقيق والمسحة الأليفة .

الصورة :

لم يكن الليل عند الشاعر الجاهلي مجرد وعاء زمني للاحداث بل كان جزءاً فعالاً متسماً بالحيوية والحركة ، ومن خلاله تتجسد ملامح الرهبة والالفة ، بحيث لو انسحب الليل من حركة الاحداث لما كان الاحساس بهذه الملامح إلا واهناً غير ذي اثر في النفس ، ولذلك كان الليل صورة نفسية تنبض بالحياة ،إن من مظاهر الصورة الليلية أنها تمثل الحركة والتدافع سواء على الصعيد الواقعي او الصعيد النفسي ، وقد تبدو براعة الشاعر في إحداث الصلة الوثيقة بين عالم الواقع الخارجي وبين عالم النفس الداخلي ... ومن هنا نحس بالانسجام في صوره التي تعرض الرهبة تارة، والالفة تارة اخرى على نحو يميز جواً عن آخر مغاير .

ومن معالم الرهبة تلك الدوية الغبراء التي سلكها المرقش في الليل الدامس ، اية وحشة توحي بها ، وأية اشارة حذر تقف على مفترق الطريق ..

وليل الاعشى يشبه بيوتاً حصينة ، وليل عنترة يقبض الطرف من شدة ظلامه ، وفي صورة اخرى لعنترة يبدو الليل معتكراً ، اي انه يمعن في تلوين

---

(٧١) مباديء النقد الأدبي ص ١٩٤ – ١٩٥

ملامحه بسواد اشد عمقاً ، وتأكيد عنترة على صور السواد انما ينبعث من شعور خاص بلونه الذي يعكر عليه حياته كالليل الذي يبدو له وهو في اشد حالات اعتكاره .

اما الأسود الجعفي فليلته مشحونة بالفزع والرعب ، فهي ليلة مزؤودة مدلهمة ... وأجمل مايبدو لنا ان الليل هو الخائف المرتعد ... وهنا تصل براعة الشاعر ذروتها في إحداث نوع من التوحد بين الشاعر والليل ، حين اضفى شيئاً من مشاعره المضطربة المفزوعة على صفحات الليل .

وامرؤ القيس من شدة ما ألمّ به من هواجس وهموم يستحيل الليل عنده موجاً متلاطماً ، او حيواناً ضخماً قد يكون من حيوانات بيئتـه ، أو حيواناً أسطورياً متخيلاً .

والليل عند امريء القيس تارة أخرى يتطاول ، وكأنه كائن بوسعه أن يتطاول أو يتقاصر متى شاء وكيفما شاء.

وفي صورة أخرى يقرنه بليل شديد الوقع ،وهو ليل المصاب في عينه ، المتألم من وجع بها .

وليل النابغة بطيء الكواكب، وفي صورة أخرى هو الآخر كائن حي يتقاعس ويتكاسل فلا يريم عن موقعه .

وتتكرر صورة الكائن الحي في شخص الليل عند الحارث بن عباد ، حين يقول :ـ

طال ليلي

من خلال احساس نفسي عام يعتري الشعراء فيوحي اليهم ان الليل هو الذي يتحكم ويتصرف : يطول تارة ويقصر أخرى .

وعدي بن زيد هو الآخر يعطي لليل هذا الملمح الحي من خلال قوله: طال ذا الليل علينا واعتكر.

أما في صورة الالفة فنحس بالانسجـام الودود بين الليل وبقية عناصر

الصورة ، فعمرو بن قميئة يرسم صورة الليل تتهادى فيها الهمسات الرقيقة ، من خلال الموعد الموافى والخيال المقبل .

وعند امريء القيس يقترن الليل بصورة حية من صور الهوى والشوق حين يتحاور صاحبه واياه ، محاورة رقيقة عذبة ، حيث يناجيه فيستجيب والعيون تتألق باللهفة والتطلع .

والمزرد يقترن ليله بالدل والصبوات والمشي الهاديء الرقيق .

والليل يضفي على جو الذكريات مسحة من رقة وعذوبة تتألق خلالها مشاعر انسانية شتى .

وعند بشر بن ابي خازم يكون الليل مسرحاً لحركة عاطفية تتهادى فيها الذكريات العذبة .

ومن خلال ذلك كله نجد أن الليل يضفي على الصورة المتكاملة العناصر وشاحاً حبيباً إلى النفس ، يتشابك الخيال وصدق المشاعر في خلق لحمته وسداه ، حتى تنبثق من اجوائه الحياة الاليفة الساجية بكل أبعادها .

مصادر البحث ومراجعه

١ — الادب وقيم الحياة المعاصرة — د. محمد زكي العشماوي — الدار القومية للطباعة والنشر — الاسكندرية ١٩٦٦

٢ — الاسطورة والرمز في الادب الجاهلي . د. عادل جاسم البياتي مقال في مجموعة من الابحاث بعنوان « الشعر والمجتمع » قدمت الى المهرجان الثالث للمربد ١٩٧٤ وزارة الاعلام — سلسلة كتاب الجماهير ٢١

٣ — الاصمعيات: ابو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبد الملك — تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون — القاهرة دار المعارف ١٩٥٥ .

٤ — اغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي — د. احمد محمد الحوفي مكتبة نهضة مصر ١٩٥٨

٥ — امراء الشعر في العصر الجاهلي د. صلاح الدين الهادي ج١ ، مكتبة الشباب بمصر ١٩٧٥

٦ — امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة . ايليا حاوي . ط١ دار الثقافة — بيروت ١٩٧٠

٧ — تطور الشعر العربي الحديث في العراق — اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج — د. علي عباس علوان. وزارة الاعلام — سلسلة الكتب الحديثة رقم ١٩٧٥/٩١

٨ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. احمد محمد الحوفي ط٤ مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ١٩٦٢

٩ — ديوان امرىء القيس — تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم — ذخائر العرب ٢٤ ط٣ . دار المعارف بمصر ١٩٦٩

١٠ ــ ديوان اوس بن حجر ــ تحقيق وشرح محمد يوسف نجم . دار صادر ط٢ / ١٩٦٠

١١ ــ ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي ــ تحقيق د. عزة حسن . وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ــ احياء التراث القديم ١٩٧٢

١٢ ــ ديوان شعر المثقب العبدي ــ تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ــ منشورات معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية. ط١ / ١٩٧١

١٣ ــ ديوان عبيد بن الابرص: تحقيق وشرح د. حسين نصار ط ١/١٩٥٧

١٤ ــ ديوان عدي بن زيد العبادي ــ تحقيق محمد جبار المعيبد نشرة وزارة الثقافة والارشاد العراقية ــ سلسلة كتب التراث ٢ مطبعة الجمهورية العراقية بغداد ١٩٦٥

١٥ ــ ديوان عمرو بن قميئة ــ تحقيق خليل ابراهيم العطية. وزارة الاعلام ــ سلسلة كتب التراث ٢٠ / ١٩٧٢

١٦ ــ ديوان عنترة ــ تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي ــ المكتب الاسلامي ــ دمشق ١٩٧٠

١٧ ــ ديوان عنترة ــ دار صادر ١٩٦٦

١٨ ــ ديوان لبيد بن ربيعة العامري ــ دار صادر ١٩٦٦ .

١٩ ــ ديوان النابغة الذبياني ــ صنعة ابن السكيت . تحقيق د. شكري فيصل ــ دار الفكر ــ دمشق ١٩٦٨

٢٠ ــ الرحلة في القصيدة الجاهلية ــ وهب رومية ــ اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ط ١ / ١٩٧٥ .

٢١ – شعر الطبيعة في الادب العربي د . سيد نوفل – مطبعة مصر – القاهرة ١٩٤٥ .

٢٢ – شعراء النصرانية قبل الاسلام – ط٢ جمع وتنسيق الاب لويس شيخو اليسوعي – دار المشرق – بيروت .

٢٣ – الطبيعة في الشعر الجاهلي . د. نورى حمودى القيس . دار الارشاد بيروت ط ١ / ١٩٧٠

٢٤ – مبادى النقد الادبي – إ . أ – ريتشاردز .

ترجمة وتقديم مصطفى بدوى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة – القاهرة .

٢٥ – مروج الذهب ومعادن الجوهر – المسعودى ج٢ – تحقيق شارل بلا – منشورات الجامعة اللبنانية . قسم الدراسات التاريخية بيروت ١٩٦٦ .

٢٦ – المفضليات – ابو العباس المفضل بن محمد الضبي – تحقيق احمد محمد شاكر – وعبد السلام هارون – دار المعارف بمصر ط ٢ / ١٩٤٣ .

٢٧ – مقدمة للشعر الجاهلي – يوسف اليوسف – مقالة في مجلة المعرفة السورية العدد ١٢١ ايلول ١٩٧٤ .

٢٨ – النابغة – سياسته وفنه ونفسيته – دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ .